قداسة النجف الاشرف
وعظمتها

الامام الشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء *

بسم الله الرحمن الرحيم

وله الحمد والمجد

منذ أنشئت هذه البلدة المقدسة، وظهر هذا المرقد الشريف، فجر طلوع الدولة العباسية او قبلها بقليل، عرف المسلمون أنها من البيوت التي أذن الله ان ترفع ويذكر فيها اسمه، وصارت افئدة كثير من العارفين تهوي إليها، وتختار السكن فيها على إنها بوادٍ غير ذي زرع ولا ضرع، ولكن اختارت مجاورة ذلك الجثمان المقدس لتحظى بشرف جواره، واقتباس لوامع أنواره، فلم يمض غير قليل، حتى اصبحت بلدة عامرة، واستدارت على ذلك المركز الالهي استدارة الدائرة، وصارت تشدُ إليها رواحل العظماء من الخلفاء والملوك والوزراء فضلاً عن العلماء والاتقياء والصلحاء وسائر طبقات العناصر الاسلامية من العرب والفرس والترك والهند وأمثالهم، وكل عظيم او زعيم او ذي شأن يقصد ذلك المقام المنيع يقدم أنفس ما لديه من التحف والنفائس تذكاراً وإذعاناً بعظمة تلك الذات المقدسة، ورمزاً للخضوع لها من قبل عصر البويهيين الى اخريات هذه العصور، فمن كل ذلك، وفي بحر هذه القرون المتطاولة، والأعصار المتمادية، اجتمع في خزانة هذه البقعة العظيمة الشأن، من نفائس التحف وكرائمها والأحجار ما لم يجتمع ولا يوجد في خزانة أي ملك من ملوك أي دولة من الدول مما يقصر الوصف دونه، وتحار العقول فيه (واضحة كالعيان)، وحيث أن هذه البلدة المقدسة حسب موقعها الجغرافي وموضعها الطبيعي واقعة في كبد الصحراء على حاشية الطفوف المطلة على الوهد الفسيح، المتصل ببر الشام غرباً، وكثبان نجد والحجاز جنوباً ولم تكن حواجز بين العراق وتلك الاقطار، فلا مسالح على الحدود، ولا مخافر، ولا معاقل ولا مناقل، فلذلك كانت النجف بل وكربلا، عرضة لغارات أعراب تلك البوادي، لا من الوهابيين فحسب، بل من جميع قبائل تلك المفاوز الشاسعة، من عنزة وشمر والرولة وغيرها، ولكن في اوليات

---

* من كبار علماء النجف ومراجعها، وزعماء الثورات الوطنية في العراق، أديب (ت١٣٧٣هـ).

القرن الثالث عشر عند نزوغ محمد بن عبد الوهاب في الحجاز ونجد، وانتشار فتواه باستحلال دماء المسلمين وأموالهم وتحريم زيارة القبور وما أشبه هذا من الفظايع، واتباع آل سعود له، والقيام بدعوته واتخاذها ذريعة الى توسيع نطاق سلطتهم، وتوفير ثروتهم، تعم على هذه البلية، والطامة الكبرى على الاسلام والمسلمين استفحلت غارة الوهابيين على ذانك البلدتين المقدستين .

ففي السنة السادسة عشر بعد الألف والمائتين هجم اولئك الطغام بجمع لايقل عدده على ما قيل عن خمسة عشر الف شاكين السلاح على بلدة كربلاء العزلاء الخالية من كل منعة وحصانة، فقتلوا ما لايحصى من الرجال والنساء الاطفال، ونهبوا ما لايعد من الأموال حتى نهبوا جميع ما في الروضة الحسينية من النفائس واحرقوا صندوق الضريح المقدس، وبعد ان نهبوا واخربوا حسبما شاءت لهم وحشيتهم انقلبوا الى النجف ليعملوا فيها تلك العملية، وكانت الزعامة الدينية يومئذ لآية الله الشيخ الأكبر جعفر كاشف الغطاء قدس سره، فليس السلاح هو . . . وجميع تلاميذه من طلبة العلم وألزم كل قادر على حمل السلاح من أهل البلد المدافعة، وكان للبلد سور ضعيف، وأبواب واهية فاستحكمها بنضد الصخور والمتارس واستعدوا للدفاع والمصاع، وبذل الأرواح دون ذلك الوطن المقدس، فلما أشرف المهاجمون على البلد، أصلتهم تلك الحامية ناراً حامية، وحسّوا بان في السويدا رجالا بل اسوداً واشبالاً فباتوا ليلتهم وانهزموا مع الليل، وكفى الله المؤمنين القتال، ولكنهم استعدوا في السنة القابلة، وشنّوا الغارة مرة ثانية، ولم يحصلوا من الغنيمة إلا على الهزيمة، لأن النجفيين بفضل ما نفث فيهم الشيخ الأكبر من روح الهمة والحماس والتفاني كانوا مستميتين ولم يكن تفانيهم في الدفاع لحماية انفسهم وأعراضهم وأموالهم فقط، بل حرصاً وحفاظاً لتلك الودايع المكينة والخزائن الثمينة التي استودعها ملوك الدنيا من كافة اقطار الأرض عند أسلافهم، فهم يحافظون على تلك الوديعة المقدسة، والأمانة الراهنة التي يعرفون ان قيمتها المادية، وإن كانت لا تقابل باوزان، ولا تماثل بالاثمان، وإنها بنفاستها تدهش النفوس، وتحيّر الألباب، ولكنهم يعرفون أيضاً ان قيمتها المعنوية وثمنها الادبي وشرفها الصميمي فوق تلك المادة، وأعلى وأغلى من أثمانها المالية، فإن من ينظر الى تلك النفائس العزيزة، والاحجار الكريمة، والجواهر اليتيمة، يعرف ما لذلك الإمام العظيم، وما لجثمانه المقدس من العظمة والشان في نفوس عظماء الدهر، وملوك العالم، حتى سخت أنفسهم بتقديم انفس ما لديهم، وأعزّ شيء عليهم مما لم يتفق مثل هذا حتى لأحد الأنبياء، أو أعاظم الزعماء، ومن حرص ذلك الزعيم الالهي الشيخ الأكبر على حفظ تلك الودائع حين رأى ان الوهابيين لا يزالون يوالون غاراتهم ويستمرون على

حملاتهم، وان واقعة كربلاء، وظفرهم بخزائنها أغراهم وأطمعهم في عظم الغنيمة، وغزارة الفائدة، رأى من أدمن على فتح باب ولج أوشك ان يلج والبلدة صغيرة، مقطوعة المادة، سهل حصارها، باد عوارها، لذلك صمم العزيمة على نقل تلك الخزانة . . . . . تلك الأمانة الى بغداد لحصانتها ومنعتها ريثما تأخذ النجف اهبتها، فحملها بنفسه مع عدة من رجاله البواسل، وأوصلها الى والي بغداد سعيد باشا فتسلمها مختومة في صناديقها، وأخذ منه قبضاً والتزاماً بارجاعها الى النجف متى أراد الشيخ او أحد أولاده، ورجع الشيخ وكَل همّه ومساعيه في تحصين تلك البلدة السامية واستحصال العدّة، واستكمال القوّة لها، على الدفاع عند عروض الطواريء، فكان من أعظم همه وأكبر مساعيه تجديد سور حصين غير ذلك السور المتداعي، فكتب الى الصدر الأعظم محمد حسين وولده أمين الدولة وهما من مريديه ومقلديه، يدعوهما الى القيام بهذا المشروع العظيم، وبعث الأموال الجزيلة والمهندسين الفنيين فبنوا هذا السور الموجود لهذا الوقت الحاضر، وجعلوا له خندقاً واسعاً يحيط بالسور . والسور محيط بالبلد شبه الدائرة المسدسة الأضلاع، وزادوا في سعته عن السور السابق، وأدخلوا فضاءاً كبيراً فيه من ناحية الشرق وبنوا فيه المخافر والمتارس والأبراج والمراصد وجعلوه كقلعة حربية، فيه المنافذ لرمي البنادق والمباني العالية لنصب المدافع والثقوب المختلفة في الصغر والكبر حسبما يقتضيه الفن الحربي في ذلك العصر، وبعد ان تكامل السور على ما يرام في حدود منتصف العقد الثالث من القرن الثالث عشر للهجرة استرجع الشيخ تلك الودائع ووضعها في حجرة من حجر الرواق المطهّر .

وفي السنة الثامنة والعشرين انتقل الشيخ الكبير الى جوار ربه وانحصرت الزعامة الدينية لعامة الإمامية في ولده الأكبر الامام موسى بن جعفر فقام بأعباء الإمامة والزعامة أحسن قيام، ولكن من المؤسف ان النجف كانت في آخر عهد الشيخ الكبير قد انصدعت وحدتها، واختلفت كلمتها وانشقت عصاها بحدوث الفرقتين المعروفتين بالزكَرت والشمرت على أثر قتل السيد محمود الرحباوي أحد الزعماء المثرين والمتنفذين في ضواحي النجف، ولم تزل مراجل الشرّ بين الفريقين تغلي، وبنات السوء تستفحل حتى اريقت الدماء من كل منهما، وصارت النجف في داخلها ساحة حرب للحزبين والحرب بينهما سجال و وصاروا يتحصنون في سطوح البيوت وراء الشرفات، ويضرب بعضهم بعضاً، وربما قتل في كل حملة عدد كثير منهم ومن الأبرياء، وكانت النجف يومئذ من حيث شكل الحكم أشبه بالبلاد الإقطاعية، خالية من الجند والشرطة النظامية، يلتزمها من والي بغداد أحد الوجهاء والمتنفذين لمقدار معين من المال يدفعه في كل سنة وتكون له سدانة الحرم الشريف وضريبة الترابية في الصحن وداخل البلد وخارجها، وله

الأعشار على ما تدخل البلد من حبوبات وتمور وغيرها حسبما يشاء ويقترح، حكماً استبدادياً اقطاعياً ويجعل له جنداً خاصاً من أهالي البلد برواتب مخصوصة لتنفيذ أحكامه وتعقيب المجرمين، وله محبس خاص ودوائر وسراي مخصوص فهو الحاكم المطلق الاّ في الشرعيات فهي للعلماء المبرزين، وربما عيّن قاضياً من أهل العلم، وكان هذا الشكل من الحكم زمن سلطنة العثمانيين يعني من أوليات القرن الثاني عشر الى آخريات الثالث عشر متوارثاً ومتسلسلاً في بيت (الملالي) الذين رأس سلسلتهم الملا عبد الله صاحب الحاشية المعروفة في المنطق، وآخرهم الملا يوسف والملا محمود، وكان ظهورهم زمن الصفوية سنة التسعمائة، وانقراضهم بعد الألف والثلثمائة.

ولما توطدت السلطنة على العراق بعد انقراض دولة الصفويين كان الكبير من تلك العائلة يذهب الى والي بغداد مصطحباً للهدايا الثمينة، من مركوب أصيل، او ملبوس أنيق، او عبيد وجواري، فيخلع الوالي عليه ويكرمه بشيء من الدراهم ويكتب له فرماناً بإقطاعه حكومة النجف وسدانة حرمها بمبلغ معين، او يعلّق على فرمان أبيه ويمضيه ثم يصحبه بمقدار يسير من العسكر العثماني، وكانوا قبيلتين لا غير (الانكشارية) و (عكيل) عقيل، وأكثر عسكر العراق من هذا القبيل. يصطحب الحاكم الجديد معه العشرين من الجند والثلاثين أو أكثر حسب الظروف المقتضية فيقيمون في النجف، ويقوم هو بنفقاتهم ومساكنهم وعتادهم وكل ما يلزم لهم وبخيلهم وسلاحهم، وبالطبع ان هذا القدر ما كان يكفي لادارة شؤون البلدان فإنها وان كانت صغيرة الصورة ولكنها كبيرة تردها الإلوف كل يوم من شتى العناصر ومختلف الأقطار أحياءً او امواتاً مضافاً الى ما ينظم إليها من الضواحي كالرحبة والرهيمة وأمثالها من العيون المعروفة (بالقصور) لذلك يحتاج الى تجهيز قوّة كافية من الأهالي ينظم إليها ذلك العدد اليسير من العسكر العثماني، وكان المتولي للحكم والسدانة عصر الشيخ موسى الملا محمد طاهر بن الملا محمود منصوباً من داود باشا حدود الثلاثين بعد المائتين وألف، ولما نشأت الفتنة العمياء و فتنة الزقرت والشمرت تحيّز للثانية بل كان هو عمدتها وعمادها الذي يمدّها بماله ونفوذه وكان أكبر همه واكثر مساعيه في إجلاء الطائفة الاولى من النجف وإبادتهم مع أنهم الأكثرية في البلد، ولم يزل يحرّش عليهم الولاة والحكومة حتى اضطروا الى قتله غيلة في الرواق المطهّر، فخلفه في حكمها ولده ملا سليمان فجرى على منوال أبيه ونهج نهجه بل زاد لأنه صار موتوراً يطلب الثار فاضطروا أيضاً بعد قليل الى قتله فقتله الباسل أحد زعماء الزقرت عباس الحداد في الصحن الشريف علانية وبعد سنوات أخذ أولاده بثأره فقتلوا عباساً الحداد في الصحن . . . .

. . . . . لما رأى ان النجف قد انشقت عصاها، واختلت داخليتها،

فاصبحت مهددة من الداخل والخارج واولئك الحكام الملالي لا يقدرون على صيانة البلاد من جراء تلك الحوادث بل الكوارث المجحفة السوداء، ولعل أحد الفريقين المتطاحنين بماله من العلائق المادية مع بعض قبائل البادية يتفق مع احدى القبائل فيدخله الى البلد ليفتك بالفريق الآخر، وهنالك ينفتح باب الغارة والنهب، والسلب، وتكون تلك الودائع في عرضة الخطر، لذلك جمع ذلك الزعيم الديني الشيخ موسى وجوه العلماء والأشراف والاعيان، وفاوضهم في تلك المعضلة، وما يلزم لها من التدبير، فقرروا نقل الخزانة الى بغداد ثانياً ريثما تعالج قضية الشقاق وتنحسم مادة تلك البلية، فأرسلها الشيخ في صناديق مختومة بخاتمه مع من يعتمد عليه من الفرسان الأشداد يحملون كتاباً منه الى الوالي وهو يومئذ داود باشا الشهير، فاستلمها واعطاهم قبضاً بها، ثم ان الشيخ بذل جهوده في اخماد تلك النائرة وأصلح بين الفريقين وجلب عدة كافية من العسكر النظامي في بغداد، واسكنه في الثكنة التي في الجانب الشرقي الشمالي من السور الجديد، وكانت تسمى القشلة، وهي مدرسة الغري في هذا اليوم فعادت المياه الى مجاريها .

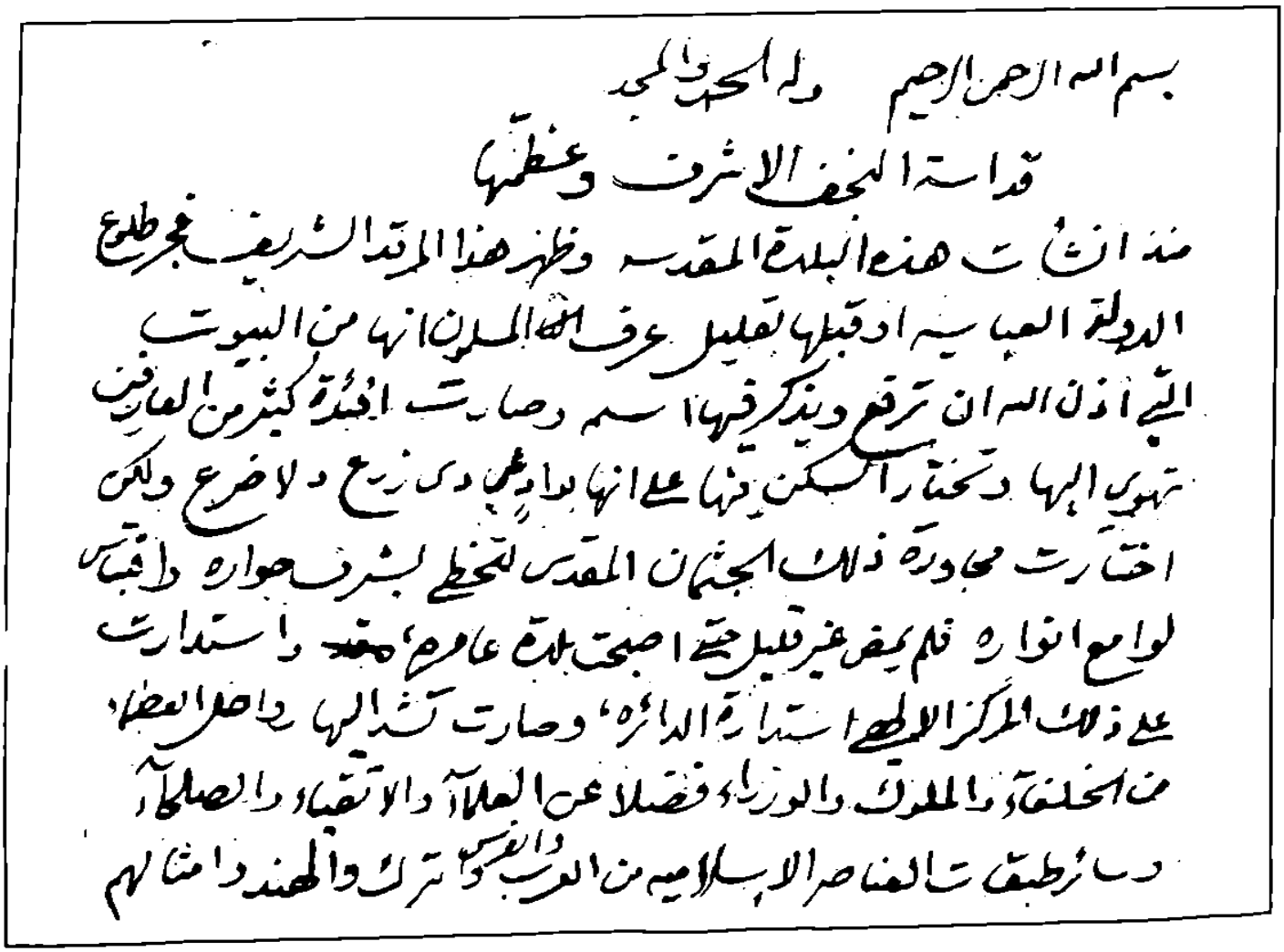

الصفحة الأولى من المقال بخط الامام كاشف الغطاء